

عالمية الرواية الغربية وصناعة التأثير العالمي The Universality of Western Novel and the Making of Universal Influence

 يوسف عطية

Youcef ATTIA

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة (الجزائر)

youcefattia01@univ-tebessa.dz

تاريخ النشر: 2025/12/25

تاريخ القبول: 2025/06/12

تاريخ الاستلام: 2024/04/20

الملخص:

تعيدنا الثقافة الروائية المعاصرة -خاصة- إلى الفرضيات التنشوية حول الإنسان الأعلى؛ حيث إن الأكثر نفوذا هو الأقدر على صنع ما يُزعم أنه الحقيقة، والأقدر على فرض جيش من المجازات والتأويلات والنتائج الثقافية، ولذلك يطمح هذا البحث إلى فحص فرضية العالمية؛ لاسيما حين ترتبط العالمية بالتأثير العالمي للرواية، ولاسيما حين تحيل العالمية ذاتها إلى سلطة تأويلات نقدية بعينها، وإلى تحوُّر في مفاهيم السلطة التي تُناط -في عصرنا هذا خاصة- بصناعة الثقافة وتحقيق الهيمنة وتفعيل المجتمعات الاستهلاكية، وهو ما يفضي إلى البؤرة الإشكالية التي يمكن تكثيفها في السؤال التالي: كيف يمكن لمفهوم عالمية الرواية أن يندرج ضمن إستراتيجيات رأس المال الثقافي ومحاولات التدجين وصناعة التأثير العالمي؟

كلمات مفتاحية: عالمية الرواية، التأثير العالمي للرواية، صناعة الثقافة، النفوذ الثقافي، السلطة

Abstract:

Contemporary novel culture returns us to Nietzsche's assumptions about superman, which hold that the most powerful is the most capable of creating truth and imposing metaphors, interpretations, and cultural products. This study seeks to investigate the universality presumption in relation to a novel's universal influence, assuming that universality denotes the power of a critical interpretation and a mutation of the power's concepts, which are currently related to making culture, achieving hegemony, and implementing consuming society. The problem is hence: How can the concept of innovative universality be integrated into cultural capital strategies, domestication attempts, and universal influence?

Keywords: Universality of the novel, Global influence of the novel, Culture industry, Cultural influence, Authority

* Auteur correspondant : يوسف عطية

Langues & Cultures / © 2025 The Authors. Published by the University of Adrar, Algeria.

This is an open access article under the CC BY license (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>)

مقدمة:

لعله يبدو واضحا أن العالم المعاصر يتسم بتضخم التوجهات الثقافية الأكثر نفوذا وذبوعا في العالم؛ لاسيما في ظل تنامي سلطة الثقافة الغربية التي أفصحت -بالضرورة- عن عالم متخم بالنتاجات الفنية والأدبية، ولطالما اعتُبرت الرواية الأنموذج الأدبي الأكثر رواجاً وتمثيلاً للنزعة الغربية الحديثة المناهضة لكل التزامات سلطوية؛ لاسيما بعد أن أكدت الثقافة الغربية المعاصرة وجاهة تنفيذ السرديات الكبرى، ووجهة التمرد على براديجمات الانضباطية والالتزامات الاجتماعية والعرفية. وقد بدا أن النموذج الثقافي الغربي عامة والروائي خاصة يحظى بتأييد وتأثير عالميين، ولذلك تهجس في خلدنا مفارقة من نوع ما؛ بين ما هو غربي وما هو عالمي، وبين الرواية وعالمية الرواية؛ حيث تكون العالمية شرط إمكان الرواية التي تؤهلها تلك الشروط لتنبؤاً مبدئياً للذوبان والتأثير، ولكن لمجرد أن نحس أن ما هو غربي ذاته يتحكم إلى حد كبير في ما هو عالمي، ويؤثر تأثيراً عالمياً على المستوى الفعلي يقع هناك نوع من التساؤل المضني عن ملاسبات ذاك التأثير وعن احتكار مجال التأثير عالمياً، والذي لا يبدو إلا مجالا يخضع لتدجين مؤسساتي لا يتسم أبداً بالشفافية والتعالي بقدر ما يرتبط بشروط إمكان تاريخية تنبجس من رحم الممارسات داخل الإستراتيجيات والمؤسسات الغربية بمختلف أنواعها.

- فكيف تم تحويل الرواية الغربية -خاصة- من مجال التأثير المحلي إلى المجال التأثير العالمي؟
- وهل يمكن أن تكون معايير العالمية في مجال الرواية معايير تتسم بال موضوعية أم أنها مجرد انحيازات مؤسساتية؟
- وما شروط إمكان عالمية الرواية؟
- وكيف تكون الرواية ظاهرة أدبية ذات تأثير عالمي على المستوى الفعلي؟

2. جدل التأثير الكولونيالي ومركزية النزعة الهيومانية:

لعله من القمين أن نؤمئ إلى أن السلطة براديجم يمكنه أن يتغير من قطب إلى قطب ومن شكل إلى شكل، ولكنه لا يفقد نفوذه أبداً ولا يتلاشى، والنتاجات الفنية عموماً والأدبية خصوصاً رغم أنها كما أشار "هربرت ماركوز" (Herbert Marcuse) تضطلع -أساساً- بتأدية دور النفي (ماركوز، 1988: 99)، وتطمح -عموماً- لممارسة نوع من التعالي الذي يتوخى التأسيس لأنموذج تشريعي من الثقافة النخبوية، إلا أن الأدب ذاته -رغم سعيه الحثيث لتقويض المركزية- يتحول هو ذاته إلى مركزية من نوع ما، وإلى مرجعية تشريعية متعالية تمارس نفوذاً سلطوياً معيناً في ظروف وملابسات تاريخية معينة، ولذلك تنتفي أسطورة الحيادية، وتذوي التقديرات المنوطة بفكرة تشييد نتاجات أدبية تستوعب الطموح البشري العالمي، وتفند الزعم التبشيري بمجتمع بشري متجانس يحظى بالخلاص المطلق. ولذلك يكون منطق الرواية -مهما كان نوعه- مركزياً بالضرورة رغم أنه يطمح دوماً لإحداث أكبر قدر ممكن من التأثير.

لقد ارتبطت الرواية الغربية خاصة بفرضية المركزية الهيومانية؛ تلك المركزية التي أسست لها الفلسفة الأنوارية ورسختها الإيديولوجيا الرومانتيكية خاصة، "فمهما سمعنا من أحاديث حول المعايير الجمالية التي تعلو على الزمان، وحول القيم الفنية الإنسانية الخالدة، والحاجة إلى معايير موضوعية ومواضع ملزمة، فإن تحرر الفرد، واستبعاد كل سلطة خارجية، والتجاهل الجريء لكل الحواجز والموانع، كان ولا يزال المبدأ الحيوي للفن الحديث" (هاوزر، 2005: 174)؛ حيث يمكن للإنسان أن يحظى بسلطة السيادة، ويتحول إلى غاية في ذاته، ولعله بدا جلياً أن النزعة الهيومانية تتنافى كل التنافي مع كل نزعة أرستقراطية أو شوفينية، فكانت الرواية -رغم تشعباتها التيمائية- تمنح الوصاية المطلقة للخيال المبدع الذي هو -أساساً- ملكية إنسانية، فكان الطموح -إذن- عالمياً بطريقة أو بأخرى، فالمناخ الثقافي العام الذي انبجست من رحم الرواية -رغم تشعباته وانثيالاته المعرفية والإيديولوجية- كان يتمحور -أساساً- حول طموح تجسيد سيادة الإبداع البشري، ورغم أن الرواية -عموماً- رفضت الخضوع لوصاية نموذج عقلائي يمنح الأولوية للتعاقبات الاجتماعية وفق فرضية ضرورة خضوع الفرد لوصاية التشريعات الجمعية، إلا أنها

لم ترفض قط وجهة التحرر من كل قصور يحتم التقيد بتبعية ما؛ ألم تكن الرواية الحديثة -خاصة- رفضاً لكل تنميط عقلائي؟ وألم تكن العقلانية ذاتها طموحاً لتجسيد الكونية وتحقيق الحلم اليوتوبي بتشديد عالم مفعم بالسلام والخلاص والاتفاق الجماعي؟ ولذلك من الضروري أن نؤمى -أولاً- إلى أن الرواية في نشأتها وازدهارها ارتبطت بالعصر الغربي الحديث الذي يرتبط -أساساً- بتسييد العقل البشري وتحريره من سلطة الوصايات المفارقة له، وثانياً يقمن بنا أن نتبى فرضية عالم الاجتماع جيل ليبوفتسكي الذي يعتقد أن الزمن الحديث اتسم بتوجهين متزامنين: التوجه الكوني (المجتمع الانضباطي/العقلاني) والتوجه الفردي (الشخصنة والتحرر الذاتي)؛ "بحيث تميز العصر الحديث المنقضي بتزاوج منطقين متناقضين" (ليبوفتسكي، 2018: 11)؛ أما أولهما فيتمثل في العقلانية ومحاولة ترشيد التوجهات الاجتماعية وضبط المجتمع وفق تشريعات يُزعم أنها كونية، وثانيهما هو النزعة الفردانية التي تمنح الأولوية للحرية الشخصية واحترام الخصوصية الفردية، وتتمرد على التشريعات العقلانية الجماعية وضوابط المجتمع، وقد تزامن هذان التوجهان، واستمر الصراع بينهما مع هيمنة الكوني (العقلاني) على الفردي (الشخصي) في مرحلة ما وُسم بالحدائنة، ولذلك حين أسفرت العقلانية عن ثورات صناعية وأخرى سياسية واستعمارية كانت جلّ التوجهات الفردانية على مستوى الفن والرواية تشجب ثقافة المدنية الحديثة وتدعو -عموماً- إلى الخلاص من قمع الثقافات السلطوية المتعالية على ما هو فردي، ولعل ذلك يحيل إلى فرضية تأثير الرواية الغربية عالمياً؛ إذ ألفت فيها تلك الشعوب المغلوبة تعزيزاً لرغباتها الثورية التي تناهض تدجين الخصوصيات الثقافية وتخضيعها لوصاية وهم الكونية المزعومة.

3. التحقيقات ما بعد الكولونيالية وردود الفعل النقدية:

ربما يبدو واضحاً -إلى حد ما- أن جل التحقيقات ما بعد الكولونيالية وردود الفعل النقدية تندرج ضمن نطاق النموذج الغربي؛ ذاك النموذج الروائي التي يطفح تمرداً، ويشجب الصيرورة التحررية المستمرة، مهما اعتقدنا أن مواقف وتيمات الرواية الغربية تنضخ من صميم تجربة وطموحات لها نوع من الخصوصية، إلا أنها عموماً تمارس نوعاً من النفي والنقد الذي يمكن أن يكون ملهماً لكل شعوب الأرض. نحن هنا نتحدث عن الرؤية إلى الرواية والتأسيسات البدئية التي تبقى غريبة، وتبقى الشعوب في نضالاتها ضد الشوفينية الغربية مستلهمة من الثقافة الروائية الغربية ذاتها. ترى ألم يكن إدوارد سعيد نفسه متشعباً بالثقافة النقدية الغربية؟ وألم يسهم هو ذاته في تزكيته وإضفاء الشرعية على مستوياتها التي تطمح لمناهضة وتقويض كل الممارسات الإمبريالية، إن فكرة التقويض وفضح الممارسات الإمبريالية هي ذاتها تفعيل للثقافة الغربية النقدية في مستواها الإيجابي والأكثر إنسانية، ولعلها هي نفسها التي ألهمت إدوارد سعيد وهومي بابا وفرانز فانون، ومنحتهم الفرصة لإنعاش إرادة الشعوب، ومنحها إمكانية اكتشاف إمكاناتها التحررية العظيمة.

لعل مصطلح ما بعد الكولونيالية الذي يحيل إلى النزعات المناهضة وردات الفعل التحررية التي تنشأ فضح التواطؤات والإكراهات الاستعمارية هي ذاتها -رغم تنديدها بالمركزيات والسرديات الكبرى واحتفائها بما وصف بالمهمش- تدين للثقافة الغربية بقدر كبير من الولاء والاعتراف. ألم يكن التفكيك نفسه فلسفة غربية بامتياز، ولذلك يعود المهمش ذاته إلى نطاق الثقافة الغربية بالذات، وإلى نفوذها الواسع، وألم تكن فكرة الرأسمالية المتأخرة التي تتأسس على تعدد الجنسيات وتواشج الأقليات وضرورة الاعتراف والتعايش مع الهجئات الثقافية فكرة غربية بامتياز؟ إذن كيف يمكن التأكد من فرضية وجود ما هو متحرر تماماً من رواسب الهوية الثقافية الغربية؟

دون الخوض في ما يبدو محاولات استثنائية إن وجدت من يقارب جلّ النتاجات الروائية العربية -مثلاً- يلفها -رغم تباين وتعدد وسخاء تيمات ومواقفها الجمالية والإيديولوجية والحياتية- تنضخ من صميم التناس مع ما هو غربي، فاللغة ذاتها متخمة بالتقاليد الغربية التي أفصح منذ عصر الأنوار -خاصة- عن ضرورة المطالبة بتسييد التصورات البشرية التي لم تكف عن طموح التحرر المستمر ومواصلة مشروع الفتوحات الإدراكية، واجتراح تصورات وكشوفات تؤهل الإنسان للتحكم والسيطرة على الطبيعة

(رافع محمد، 1991: 41)، ولذلك لا يمكن الحديث عن خصوصية مستقلة عن مجال الطروحات الثقافية الغربية التي نلّفها حاضرة -مثلا- عند مستغاني في احتفاءاتها بالأنثوية وأوار التجارب النسائية، وعند الأعرج في تنقيباته السردية ومراجعاته التاريخية، وعند فيصل الأحمر في أخيلته العلمية، وعند لحبيب السايح في إيديولوجيات التعايش والتسامح، وغيرهم ممن لم يستطيعوا تقرير نظرية أو رؤية بدئية خارج نطاق الأرشييف الروائي العالمي. ولذلك يمكن أن نستكنه أن عالمية الرواية هي -إلى حد ما- بؤرة سلطوية من المعتاص جدا أن تحيل إلى ما هو خارج معاجم وموسوعات الثقافة الغربية.

4. الوعي النقدي وفعالية الجهود المؤسسية:

لقد اجتهدت الرواية الغربية في تقويض الثقافة البيوريتانية وأرثوذكسية التفسير، ومجّدت -إلى حد كبير- نسبة المجال الثقافي وقصور الحقيقة، ومحدودية الوعي البشري، لكنها -في غضون تلك المناشدات الفنية- حدث أن أسست الرواية الحديثة لنموذج ثقافي يؤهل لتحقيق مركزية سلطوية هي الأخرى لها نموذجها ونمطيتها المعيارية، ولعل الاهتمامات النقدية هي المسؤول الأول عن الترويج لذلك النموذج، فحتى التوجهات النقدية ما بعد البنيوية لم تكن إلا ارتدادا للرؤى الحداثية ذاتها (بروكر، 1995: 34-35)، وهكذا وجد العالم نفسه مضطرا لإبداء كثير من الولاء لهذه السلطة وتسويغ شرعيتها. فهل يمكن الادعاء -مثلا- أن الرواية العربية عموما والجزائرية خصوصا تطورت مستقلة عن تلك السلطة؟ وهل يمكن الحديث عن خصوصية أو محلية خالصة؟ فبغض النظر عن التلويّنات التيمائية بقيت الرواية -عموما- امتدادا لسلطة النموذج الغربي، "وهكذا أسقط الأدب الأوربي نفسه على العوالم الجديدة وأصبح هو الأدب العالمي بما يمثله من وعاء ونموذج أعلى ملزم لكل الآداب الأخرى عندما يتم فحصها وتمحيصها وقبولها" (نيشي، 2007: 49).

لو تأملنا المشهد الروائي سنلّف أن كثيرا من الروايات قد حظيت بمقروئية وسبعة لا لسبب يرتبط بتمييزها الذاتي بالضرورة، وإنما بسبب الاهتمام بها نقدا وفحصا ومعاينة؛ ذلك أن الاهتمام النقدي يتيح للرواية الولوج إلى منصات التلقي، ويستعري اهتمام القارئ لاسيما أكاديميا، ولعل ما حدث في الغرب بالذات هو ذاك الاهتمام الجاد والمفرط بكل النتاجات الأدبية لاسيما الرواية، ويكفي أن نومي هنا إلى مدارس وتوجهات نقدية كاملة مثل الشكلايين الروس والبنيويين وما بعد البنيويين وغيرهم كثير، وما تجدر الإشارة إليه -في هذا السياق- هو أن الاهتمام النقدي لم يقتصر على جماعة بعينها بل شارك في تلك السجلات والاهتمامات النقدية شرائح متعددة التوجهات، فهناك الأنثروبولوجيون مثل ستراوس، وهناك علماء النفس مثل لاكان وفرويد، وهناك علماء الاجتماع مثل ماركس، وهناك الإيستمولوجيون مثل باشلار، وحتى الفلاسفة مثل مارتن هيدغر الذي اهتم بشعر فريدرش هولدرلين، وفوكو الذي اهتم بريمون روسيل، وغيرهم. وقد كان ذاك الاهتمام -بما يستقطب من توجهات متنوعة- يفعل مستوى الحوار والمناقشة، ومن جهة أخرى نلّف أن الاهتمام بالآداب -بغض النظر عن الاهتمامات الأكاديمية- لم يقتصر على من هم أكاديميون، فقد كان -مثلا- كثير من رواد النقد الجديد لا ينتمون لأية مؤسسة أكاديمية، بغض النظر عن النوادي والصالونات والمراسلات والصحافة ودور النشر وغير ذلك كثير.

ناهيك عن الجهود التي بدت مميزة في فرادتها، فنحن نذكر أننا تعرفنا على كثير من الروايات من خلال دراسات بارت مثلا، ولذلك كان من الضروري أن تكون الروايات الغربية أكثر حضورا على مستوى الوعي الأكاديمي والنقدي العربي، وكان لزاما على من يكتب الروايات العربية -مثلا- أن يكون على اطلاع بتلك الأرشيفات الدراسية الغربية خاصة، وسيستلزم ذلك تشربا للمنهجيات الغربية حتى ولو كانت المواقف والتيمات تزعم بعض الخصوصية، ولعل الإشكال -هنا- يتجسد في عسر التحرر من طوفان الجهود الغربية التي بدت وسبعة جدا ومتعددة، وتحظى بتقدير من مختلف المؤسسات والتخصصات، ولو ولينا وجوهنا شطر النتاجات الأدبية العربية مثلا، وخاصة الروائية منها سنلّف أنها لا تحظى باهتمامات نقدية عالمية كافية تؤهلها لتجاوز تلك الاهتمامات الضيقة التي لا تتجاوز -عموما- الحدود المحلية، و"أستطيع أن أقول إن الأدب العربي ليس بأي معنى من المعاني ظاهرة أدبية ذات

تأثير عالمي على المستوى الفعلي. لماذاؤكد ذلك؟ ببساطة شديدة لأن الأدب العربي لم يدخل الحوار العام للنقد الأدبي على المستوى العالمي مثلما حدث، على سبيل المثال، مع أدب أمريكا اللاتينية" (اصطيف، 2020: 15).

5. الرفض والمراقبة:

ترتبط العالمية بالتلقي ارتباطا راديكاليا، ولا يخفى علينا أن أشد الأعمال استثارة للفضول واسترعاءً للتلقي هي تلك التي أضرمت سجلات حامية الوطيس، وتسببت في ردات فعل ومواقف متعددة ومتباينة الضراوة والاستفزاز، ولذلك نلقي أن الرواية الغربية حظيت بكثير من الانتباه الذي تحول في كثير من الأحيان إلى قضايا لا تقل شأنًا عن القضايا المصرية المتنوعة تاريخيا، ولعله يمكننا أن نومي إلى رواية عوليس لجيمس جويس التي رُفض نشرها أكثر من اثنتي عشرة مرة؛ حيث رُفضت في بريطانيا في الثلاثينيات وفي أستراليا في الثلاثينيات والأربعينيات كما منعت في أمريكا التي رفعت الحظر عنها سنة 1933، ولا ننسى أيضا إليوت الذي رفض نشر رواية جورج أورويل الموسومة بـ (مزرعة الحيوان) و"الأرشيف الأدبي يكشف أن أورويل لم يكن الكاتب الوحيد الذي تعرض لسلسلة من الرفض، فالمكتبة أيضا حفظت مجموعة رسائل رفض لرواية جيمس جويس صورة الفنان في شبابه" (الرفاعي، 2019: 171). كما لا ننسى غوستاف فلوبيرو روايته المشهورة (مادام بوفاري) التي حوكم بسببها فلوبيرو بحجة انتهاك الآداب العامة. وألدوس هسكلي وروايته (عالم جديد جريء) التي منعت سنة 1932 في إيرلندا بحجة الانفتاح الجنسي المفرط، والمفارقة أن تلك الروايات كلها أصبحت فيما بعد ذات صيت كبير وتأثير عالمي واضح.

لعل ما سبق يؤكد ضخامة الاهتمام داخل الشرائح والمؤسسات الغربية؛ فحتى داخل أروقة المحاكم وبين المحلفين كان هناك اهتمام بالنتاجات الأدبية، وعلى مستوى الرؤساء والوزراء كانت هناك آراء ومواقف تحيل إلى ضرورة الانخراط في هذا المجال الثقافي الذي بدا ضروريا ومؤسسة لها من التأثير ما يكفي، فرفض بعض النتاجات أو قبولها فيما بعد -بغض النظر عن فرضية سلبية الرقابة الممارسة من طرف المؤسسات السياسية خاصة- يؤكد من جهة أخرى أن الاهتمام رفضا أو قبولاً يعزز مكانة النتاجات الأدبية ويمنحها مشروعية التأثير المحلي والعالمي. ويدلل على الوعي الثقافي بضرورة تقدير ما ينتج وما يُروّج على مستوى الساحة الثقافية. فرواية (لوليتا) -مثلا- للأديب الروسي فلاديمير نابوكوف رفضت في البداية في عدة دور نشر أمريكية بحجة إباحيتها المفرطة والشاذة، وما هي اليوم بعد خمسة وستين عاما من ظهورها تعد من بين أفضل 100 رواية في القرن العشرين؛ حيث أدرجت رواية لوليتا في قائمة تايمز التي تتضمن أفضل 100 رواية باللغة الإنجليزية من 1023 حتى 2005.

ونجد أنه لا ضرورة لرصد أسباب الرفض والقبول؛ إذ إن الأمر يرتبط بتلك التحولات الذي طرأت على مستوى المجتمعات الغربية وعلى مستوى رؤاها للعالم؛ حيث انتقلت -عموما- من الثقافة البيوريتانية والانضباطية إلى ثقافة متعية واستهلاكية (ليبوفتسكي، 2018: 110). وما يهمنا أكثر هو أن مثل تلك المراقبات والنقاشات السجالية تبين التأثير الجاد للرواية، وتثبت أن العالمية ترتبط بالتطورات الاجتماعية وبالرؤية للعالم، وبالوعي العميق بقيمة النتاجات الفنية التي يتجاوز الاهتمام بها النطاق الأكاديمي الضيق. فما يلاحظ -مثلا- على مستوى الثقافة والمؤسسات العربية هو غياب ذاك الاهتمام؛ إذ يوشك الأمر أن ينحصر في المقررات الأكاديمية وفي التخصصات التي تنغلغ يوما بعد آخر على نفسها.

6. الجوائز: جائزة نوبل أنموذجا:

مهما كانت النسبية وتلك الشكوك في مدى مصداقية نوبل إلا أنه لا يمكن إنكار وجاهة تأثيرها في المجال العالمي، فما يحظى بتزكية هذه المؤسسة سيحظى بفعالية انتشارية كثيفة، ولكن ما يهم في هذا السياق هو السؤال التالي: ما هو معيار الأفضلية الذي تتبناه مؤسسة نوبل التي تضم كثيرا من الخبراء من شتى الأصقاع، وفي كل مرة يتم توسيع مجال تمثيلها؟ أولا ما يلاحظ هو أن هذه المؤسسة -مهما توسعت دوائر تمثيلها من الخبراء- سيبقى ذاك التمثيل أقلية، وسيبقى قاصرا عن تجسيد ما هو عالمي بنزاهة ومصداقية، وثانيا سيبقى معايير الانتقاء خاضعة للنموذج النقدي الأقوى الذي هو نموذج غربي بامتياز، وثالثا سيرتبط الانتقاء بما

هو راهن يتجاوب مع التطورات التي طرأت على مستوى البنيات الثقافية والاجتماعية، ولو عاينًا تلك التطورات سنجد أنها أكثر ارتباطًا بالمجتمعات الغربية، ولذلك نلفي أن "كلمة عالمية استمدت كيانها من أوروبا، فباتت مرادفًا لها، كل ما هو أوروبي عالمي بالضرورة، في تأكيد للهيمنة الغربية على كل شيء ومن ضمن ذلك الثقافة نفسها، ليس غريبًا بالتالي أن تكتسب جائزة أوروبية سمعة عالية مع أنها موجهة بالأساس للكاتب الأوربي" (الرفاعي، 2017: 165)، فهي هي -مثلا- الفرنسية آني إيرنو التي حازت سنة 2022 على جائزة نوبل بحجة (شجاعتها وبراعتها الموضوعية في اكتشاف الجذور والقيود الجماعية وتغريب الذاكرة الشخصية)، قد عُرفت رواياتها "بتمركزها، إلى حد بعيد، حول تجاربها الخاصة والحميمية؛ حيث لا تغادر أعمالها مواضيع مثل الأزمات العائلية، والإحساس بالعار تجاه الطبقة التي تنتمي إليها، إضافة إلى كتابتها عن علاقاتها العاطفية دون استعارات أو تورية" (الرفاعي، 2022: 143)، ولذلك يبدو أن أكثر المعايير وجاهة -والتي تتبناها مؤسسة نوبل- تُناط بتلك النتائج المثيرة للجدل والتي ترتبط -أساسًا- بفرضيات العقل الغربي الذي يعيش دوما حالة من الترحال والتمرد والإغراء، فمنذ عصر التنوير -خاصة- لم ينفك الأدب عن تأدية دور النفي لكل التواطآت الاجتماعية والعرفية؛ حيث بدا أن العقل الغربي هو عقل يحتفي كثيرا بالتمرد وتحقيق المتعة والمغامرة والتجارب غير المألوفة، مما جعل فكرة الإبداع تتجذر في كل شيء. إلى الدرجة التي وجدنا فيها جائزة نوبل للأدب قد مُنحت لسياسيين لم يكتبوا أي أدب مثل تشرشل، ومنحت لمغنٍ لا علاقة له بالأدب مثل الأمريكي بوب ديLAN.

ولذلك يبدو -إلى حد ما- أن الثقافات التي تُعد -دوما- بتحقيق النموذج التحرري تبقى هي ذاتها خاضعة لقوة المؤسسات الثقافية الغربية التي تفلح في استقطاب التعدد الصوتي وتدجينه لصالح صناعاتها الثقافية، وما على الثقافات البشرية إلا أن تكون -ضمنيا- قارئًا نجيبًا ومؤولا حصيدًا لتلك الصناعات، إلى درجة أن المعايير الانتقائية -عموما- يعسر أن تتحرر من تأثير التوصيات الغربية، فكيف -إذن- يمكن الحديث عن عالمية خارج نطاق مركزية سلطوية معينة ترتبط بنفوذ المؤسسات الثقافية الغربية التي تحتكر أرقى الجوائز وأضخم التجهيزات الطباعية والإعلامية والإشهارية والأكاديمية؟ نظن أنه لا يمكن ذلك إلا من خلال استيعاب الأسباب التي أهلت الرواية الغربية إلى ممارسة تأثير عالمي واضح منحها صفة العالمية.

7. الترجمة:

ربما نلفي من يقلل من شأن الترجمة مثل اصطيف الذي يقول: "ومعنى هذا أن الترجمة وحدها لا تكفي جواز سفر للدخول إلى عالم الأدب العالمي، فضلًا عن أنها لا تستند في اختياراتها لما تتم ترجمته إلى معايير فنية وأدبية فقط، وثمة عوامل أخرى تحفزها تتصل بواقع العلاقات الدولية، والتطورات التي تشهدها على المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما أن للإعلام دورًا متناميًا في تعزيز انتشار الاهتمام ببعض الأعمال الأدبية المترجمة وغير المترجمة وتوسيع دائرة تلقيها من جانب القراء المختصين وغير المختصين ممن يهمهم متابعة التطورات الأدبية العالمية، والاطلاع على آخر نتائج الآداب الأخرى" (اصطيف، 2020: 16).

ورغم مشاطرة عبد النبي اصطيف الرأي إلا أن للترجمة دورًا فاعلا في مجال تحقيق التأثير العالمي والثقافي، وبالنسبة لها جس العالمية فما يلاحظ على المستوى العربي والجزائري خاصة أن حركة الترجمة تعاني تعثرًا ميتودولوجيًا؛ إذ لا يكفي الانكباب على ترجمة ما عُدد روائعًا عالمية إلى اللغة العربية. ومجال ما هو عربي لا يحظى بكثير من اهتمام المترجمين. فكم هي الجهود الفردية أو الجماعية لترجمة الروايات الجزائرية التي يبدو أنها تعاني خيبة ما؟ لعل التلقي الغربي وزعمه الاهتمام بما هو مهمش هو ذاته زعم شوفياني؛ إذ إن المؤسسات الثقافية الغربية تنتقي اهتماماتها على مستوى الترجمة، ولذا يجب التفتن إلى ضرورة بذل جهود جماعية بالدرجة الأولى تضطلع بترجمة ما تركيه المؤسسات الثقافية العربية ذاتها بدل انتظار الآخرين لتقرير ما يجب انتقاؤه. لقد لفت انتباهي -مثلا- في المعرض الدولي السابق ما بذله أحد الأكاديميين في ترجمة رواية غربية نشرت ربما في الثلاثينيات. ربما كان الأجدى ترجمة رواية جزائرية إلى لغة أجنبية بدل ترجمة روايات لها العديد من الترجمات العربية السابقة. وبالتالي ييسر أن نلاحظ

أن جهود الترجمة -خاصة حين تتبناها المؤسسات وتكون في إطار الاتفاقيات ووفق إستراتيجيات جادة- تسهم بفعالية كبيرة في تأهيل الرواية لأداء تأثير عالمي واضح.

خاتمة:

وختاماً؛ لعل فرضية أن العالمية تستوجب اتفاقاً كونياً حول معايير معينة هو أمر يتضمن كثيراً من السذاجة؛ إذ إن ما هو كوني ذاته تختلف دلالاته من صقع إلى صقع، ومن فترة تاريخية إلى أخرى، كما أن فرضية العبقرية والتميز هي الأخرى تفقد جدواها في ظل سلطة المؤسسات، وبدل أن نحقق في مدى تجاوب الرواية مع ما يُزعم أنه عالمي وجب علينا أن نعين الأسباب التاريخية خاصة التي تؤهل الرواية لتأدية تأثير عالمي، وقد سلف أن أفصحنا -إلى حد ما- عن أن الرواية الغربية -عموماً- مارست وصاية عالمية لتوفر عدة أسباب لعل أقمنها بالذكر هي ارتباطها بتقديس النزعة التحررية والطموح للإبداع والتجديد والتحقيق والتجاوز، والأهم هو تلك الرغبة الملحة في تسييد ثقافة الذات الغربية، وتجنب الوقوع في شرك أقول الوجود الغربي.

إذن؛ يتضح للمتتبع لهوية النموذج الغربي الذي يحظى بنفوذ يؤمله للعالمية أنه نموذج كان أكثر سطوة منذ التنوير إلى الحداثة وإلى ما بعد الحداثة، وهو -عموماً- أنموذج يلح -بوضوح- على التحرر والتمرد المستمر على كل القيود والعادات المترهلة والأفكار الجاهزة، ولا يتسع المقام لتوضيح تلك الصيرورة، ولكن يمكن أن نؤمى إلى أن ذاك النموذج خلص إلى تحقيق ما يشبه المانفستو الأكثر معاصرة، والذي يركّز على تمجيد شبه مطلق للحرية الفائقة والفردانية المفرطة والاختلاف، والتي لا يمكن أن تكون إلا خصوصيات تنضخ من صميم الثقافة الغربية. ولعل فكرة المحلية ذاتها التي عُدّت مدخلاً للعالمية وعولمة العالم من خلال تقبل تبايناته واختلافاته الثقافية هي ذاتها مفارقة روج لها الأدب الغربي بالدرجة الأولى (روايات جويس مثال على ذلك)، ولذلك يجدر بنا أن نفهم أن الخصوصية الروائية التي توختها الرواية العربية عموماً والجزائرية خصوصاً ما فتئت تدور في فلك مركزية الطروحات الغربية؛ لاسيما أن تمجيد ثقافة الاختلاف وتقبل المهمش وإعادة الاعتبار لما هو محلي، والتمرد المستمر هي كلها توصيات غربية تجعل ما هو مختلف عنها تابعا -ضمنياً- لتوصياتها. فالغرب ليس حيزاً جغرافياً بقدر ما هو نظام ثقافي مركزي يتغذى من تعدد الجنسيات وتنوع الأقليات، والقدرة على استيعاب المختلف وتدجينه من خلال صناعة الميولات الثقافية ذاتها وصناعة الرغبات.

قائمة المراجع:

- أرماندو نيشي. (2007). تاريخ مختلف للأدب العالمي (المجلد 01). (حسين محمود، المترجمون) القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- أرنولد هاووزر. (2005). الفن والمجتمع عبر التاريخ (المجلد 02). (فؤاد زكرياء، المترجمون) الإسكندرية، مصر: دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر.
- بيتر بروكر. (1995). الحداثة وما بعد الحداثة (المجلد 01). (عبد الوهاب علوب، المترجمون) أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة: منشورات المجمع الثقافي.
- جيل ليبوفتسكي. (2018). عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة (المجلد 01). (حافظ إدوخراز، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز نماء للبحوث والدراسات.
- سماح رافع محمد. (1991). الفينومينولوجيا عند هوسرل: دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر (المجلد 01). بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

- عبد النبي اصطياف. (كانون الأول، 2020). في دمج الأدب العربي بمتن الأدب العالمي. *مجلة الموقف الأدبي*، 49 (596)، الصفحات 15 - 22.
- منير الرفاعي. (2017). جائزة نوبل: تاريخ حافل بالغرائب والفضائح. *مجلة الآداب العالمية*، 41 (171)، الصفحات 161 - 174.
- منير الرفاعي. (2019). ت.س. إليوت يرفض نشر رواية "مزرعة الحيوان" لجورج أرويل. *مجلة الآداب العالمية*، 44 (177)، الصفحات 170 - 172.
- منير الرفاعي. (2022). الكاتب السريلانكي شيهان كاروناتيلالا يفوز بجائزة بوكر الأدبية لعام 2022. *مجلة الآداب العالمية*، 48 (191)، الصفحات 147 - 149.
- هيربرت ماركوز. (1988). *الإنسان ذو البعد الواحد* (المجلد 03). (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت، لبنان: منشورات دار الآداب.